«وكان الله عليما حكيما»*

دراسة لغوية تحليلية لفعل الكينونة

الدكتور السعيد هادف

أستاذ محاضر بجامعة باتنة

يكتسي الفعل في اللغة العربية أهمية بالغة؛ إذ هو أحد الأقسام الثلاثة، حسب تقسيم نحويينا العرب القدامى (فعل، اسم، حرف). وليست تهدف هذه المقالة إلى تبيان قيمة الفعل بالنسبة إلى الاسم أو العكس، كما أنها لا تهدف - كما قد يوحي العنوان - إلى الوقوف عند ركني الجملة المنسوخة (أي الاسم والخبر)، وإنما تهدف بالدرجة الأولى إلى الوقوف عند الفعل "كان" بصيغة الماضي، الذي اعتيد على تسميته بالفعل "الناقص" و"الناسخ" في مصطلحنا العربي القديم - وحتى بعض الحديث، والفعل "المساعد" أو "الرابط" أو "فعل الكينونة" عند المستشرقين وعند بعض لغويينا المعاصرين (Copule, auxiliant, auxilliaire être, etc.).

وإذ قلنا إن الفعل عامة في اللغة العربية يكتسي أهمية قصوى، فذلك لأن التواصل بهذه اللغة يكون محدودا جدا - إن لم نقل منعدما - من دون استعمال الفعل. إذ

* تتكرر هذه الآية بكثرة في القرآن الكريم؛ ففي سورة النساء مثلا نجدها في الآيات: 17، 92، 104، 111 و 170.

لا يعقل أن يتم تواصل وتفاهم كافيان بين مستعملي اللغة العربية دون اللجوء إلى الفعل. وإذا كان اللجوء إلى الفعل عامة يساعد على أن يكون التواصل بالعربية أوسع وأشمل، خلافا للتواصل الضيق والمحدود الذي يستعمل الجمل الاسمية فقط، فإن اللجوء إلى فعل الكينونة لا يجعل التواصل أوسع وأشمل فقط، بل أدق وأضبط.

فلا غرابة إذا أن نجد أن استعمال الفعل "كان" في اللغة العربية يتردد بكثرة لافتة للانتباه. يقول عبد الرحمن أيوب الذي درس أفعال الكينونة في القرآن الكريم:

« إن استعمال "ك و ن" كرابط للفعل (auxiliaire verbal) هو الأكثر استعمالا في لغة القرآن، ومن دون شك في مجموع اللغة العربية »[1].

وإن نحن رجعنا إلى الدراسة الاحصائية للفعل في القرآن الكريم التي قام بها مصطفى الشويمي نجد أن "ك و ن" قد تكرر 1356 مرة[2].

ومما يؤكد كثرة استعمال "ك و ن" في اللغة العربية هو أن جيرار تروبو (Gérard TROUPEAU) الذي قام بدراسة معجم "الكتاب" لسيبويه، قد لاحظ ورود الجذر "ك و ن" بكثرة في مؤلف سيبويه، الشيء الذي جعله يهمل إحصاء هذا الجذر تماما[3].

ولعل كثرة استعمال الفعل "كان" في اللغة العربية هي التي جعلت هذا الفعل يأخذ بعض خصائص الاسم، بأن تدخل عليه، على سبيل المثال، "ال" التعريف؛ إذ غدونا نقرأ و نسمع في الأدب الشعبي "قصص "الكان- كان"، فنلاحظ هنا أن الفعل "كان" الذي يتصدر العبارة الشعبية « كان يا ماكان في قديم الزمان ... » أو في قصص "ألف ليلة

1) " L'usage de "kwn" en auxiliaire verbal est le plus fréquent dans le langage coranique et, sans nul doute, dans l'ensemble de la langue arabe " (L'Auxiliation dans le Coran: L'Expression du Temps, Abderrahmane AYOUB, thèse dactylographiée de 3ème cycle, Sorbonne Nouvelle, Paris III 1977, p.145.

2) Voir le verbe dans le Coran : Racines et Formes, Moustafa CHOUEMI, Klincksieck, Paris 1960, p.38 .

3) Voir Lexique-Index du Kitab de Sibawayhi, Klincksieck, Paris 1976, p.10

وليلة" التي تصدر عادة بعبارة : "كان في قديم الزمان ..."، قد دخلت عليه "ال" التعريف. وأكثر من هذا أن نجد أن الفعل "كان" قد لحقته "ياء النسبة" التي هي الأخرى إحدى خصائص الاسم. يورد عطية عامر محقق كتاب "لمع الأدلة في أصول النحو" لأبي البركات الأنباري بيتا طريفا - مأخوذا في الأصل عن لسان العرب - قد استعمل فيه الشاعر الفعل "كنت" (بضم التاء) معرفا بـ "ال" وملحقا بياء النسبة:

وما أنا كنتيٌّ ولا عاجن * وشر الرجال الكنتي وعاجن[4]

ومعنى "الكنتي" في هذا البيت هو الشيخ المسن، الذي يكثر في كلامه لفظة "كنت" (بضم التاء) تحسرا على نشاطه في شبابه، وأما "العاجن" فالمقصود منه أيضا الشيخ العجوز لا يستطيع أن ينهض، وإن هو فعل تجده يرتكز على تفاحتي يديه بحيث تراه في هيئة العاجن الذي يعجن الدقيق.

وفيما يلي، سوف نتعرض للفعل "كان" من حيث الجهة والزمن لتكون لنا بعد ذلك وقفات مع أنواع هذا الفعل ذي الأهمية البالغة، ليس لأنه "أم الأفعال" فحسب كما عبر عن ذلك النحاة العرب القدامى، بل لأنه أيضا حجر الزاوية لنظام الفعل في اللغة العربية.

I - الجهة:

الواقع، إن الفعل "كان" من حيث "الجهة" يطرح مشاكل عويصة.

والمقصود بمصطلح "الجهة" هو "الكيفية التي ينظر بها إلى الحدث في الفعل، على أنه حدث تام أو حدث غير تام".

ومصطلح "الجهة" هو ما يقابل المصطلح الأنجليزي "The aspect" والمصطلح الفرنسي "L'aspect" ونسجل هنا - عرضا - أن هناك من الباحثين من يقترح التسمية العربية "الرئيان" مقابل التسمية الغربية (aspect). وأخص بالذكر الباحث المغربي بوجمعة

4) لمع الأدلة في أصول النحو، أبو البركات كمال الدين الأنباري، تح عطية عامر، سطوكهولم 1963، ص 66 ، الهامش "ب".

هباز الذي يعتقد، في مقال له باللغة الفرنسية (Notes sur les notions de temps et d'aspect)، أن التحليل الذي يقدمه فيما يخص مفهوم "الرئيان" - حسب مصطلحه المقترح - هو مفهوم غير معروف بالنسبة "للنحويين العرب الأحاديي اللغة"(monolingues) [5].

وتذكر الباحثة ليلى مسعودي، من جهتها هي الأخرى، أن النحويين العرب لم يتكلموا عن مصطلح "الجهة" وأنهم تقريبا أهملوه [6]. وقد ذكرت الباحثة مسعودي أنها قد سمعت بعض اللغويين العرب المعاصرين يستعمل المصطلح "الأسبيكت"، وهو كما نلاحظ ترجمة حرفية عن اللغة الأنجليزية "The aspect".

وكما ذكر أعلاه - وبما أن السياق ههنا ليس هو مناقشة مصطلح "الجهة" الذي هو مصطلح لساني معاصر - فإن الفعل "كان" في اللغة العربية يطرح مشاكل عويصة من حيث الكيفية التي ننظر بها إلى الحدث فيه، أي من حيث الجهة.

وعموما، فإن صيغة "فعل" في اللغة العربية (أي "كان") تعني أن الحدث "تام" [7]، أما صيغة "يفعل" (أي "يكون") فتعني أن الحدث "غير تام" [8].

---

5) " [la notion d'aspect] est méconnue des grammairiens arabes monolingues", Boujemaâ HEBAZ, Notes sur les notions de temps et d'aspect, in Traces, Linguistiques Sémiotiques, Rabat, 3/1980, p.20 .

6) " (...) Grammairiens arabes - qui n'ont pas parlé d'aspect et qui n'ont pas étudié la question sous tous ses angles et qui l'ont presque negligée " Leila MESSAOUDI, Temps et Aspect: Approche de la Phrase Simple en Arabe Écrit, thèse dactylographiée de 3ème cycle, Sorbonne Paris IV, 1981, p.2.

7) تستعمل اللسانيات المعاصرة مصطلحات عديدة للتعبير عن الحدث في الفعل عندما يكون تاما منها:

accompli, parfait, limitatif, cursif, Constatif, ponctuel, momentané .....

8) من المصطلحات اللسانية المعاصرة للتعبير عن الحدث غير التام:

Inaccompli, imparfait, délimitatif, crusif, imperfectif, lunéaire, duratif...

وإن نحن سلمنا بالتقسيم الثلاثي للجهة الذي يقدمه مارك ويلمي (Marc Wilmet) في مقال له بعنوان:

"Aspect grammatical, aspect sémantique, aspect lexical: un problème de limites"

(الجهة النحوية، الجهة الدلالية،الجهة المعجمية: مشكل حدود)، فإن الفعل «كان» يمكن إدراجه ضمن أفعال "الجهة الدلالية" (l'aspect sémantique) ، وبالذات ضمن نوع الأفعال التي يطلق عليها ويلمي "أفعال الديمومة" (verbes statifs) [9].

إن "الجهة الدلالية" بالنسبة لويلمي هي الجهة التي "تميز حدث الفعل في طبيعته الموضوعية"[10]. وأما أفعال الديمومة التي هي أولى الأنواع الأربعة[11] للجهة الدلالية، حسب تعبير ويلمي، فهي الأفعال التي " لا تقبل الاستمرارية بين بداية الحدث ونهايته، مثل: كان: وجد، علم، عرف، أحب..."[12]. كما أن أفعال الديمومة تعرف من المفروض، حسب ويلمي دائما، بعدم تقبلها للعبارة "être en train de". ولتوضيح هذه العبارة الفرنسية التي يصعب نقلها إلى اللغة العربية، فإنه يستحسن إعطاء مثال للتوضيح بالفعل "علم" (savoir) الذي هو أحد أفعال الديمومة التي ذكرها ويلمي. حسب ويلمي لا يمكن أن نقول

---

9) الجهة الدلالية بالنسبة لويلمي تنقسم إلى أربعة أنواع: 1) أفعال الديمومة (Verbes statifs)، 2) الأفعال المنجزة (verbes perfectifs)، 3) الأفعال غير المنجزة (verbes imperfeetifs)، 4) الأفعال الاستنتاجية (verbes conclusifs) ينظر:

Marc Wilmet, Aspect grammatical, aspect sémantique, aspect lexical: un problème de limites, in la Notion d'aspect, Klincksieck, Paris 1980, p-p . 61 - 62 .

10) "[qui] caractérise un événement verbal dans sa nature objective" (ibid, p.61) .

11) راجع الهامش رقم (9).

12) " Les verbes statifs excluent toute progression entre leur terminus a quo et leur terminus ad quem: être, exister, savoir, connaître, aimer..." (ibid).

باللغة الفرنسية "tu es en train de savoir" أي ما يقابل، إلى حد ما، العبارة العربية: "أنت الآن بصدد العلم" بحيث يكون "حدث العلم" ساري المفعول والتحقق لحظة التلفظ بالعبارة، وذلك خلافا للفعل "كتب"، على سبيل المثال، الذي هو فعل غير ديمومي؛ إذ يمكن لنا جدا أن نقول: "Tu es en train d'écrire une lettre" ، أي «أنت الآن تكتب رسالة» أو "إنك بصدد فعل كتابة رسالة". بتعبير آخر، إن الاستمرار في فعل كتابة الرسالة حادث لحظة التلفظ بالعبارة. فإذا كان الفعل "كتب" يقبل الاستمرارية بين بداية حدث الكتابة ونهايته، فإن الفعل "علم" لا يقبل هذه الاستمرارية، كما سبقت الإشارة إلى ذلك أعلاه. و ربما أمكن لنا أن نستنتج من كلام ويلمي هذا أن أفعال الديمومة هي من قبيل الأفعال التي "إما أن تكون وإما ألا تكون"؛ أو هي، بتعبير آخر، الأفعال التي يكون الحدث فيها قد بلغ نهايته أولا يكون أصلا؛ بمعنى أن مرحلة تكوّن الحدث واستمراريته هي مرحلة منعدمة في مثل هذه الأفعال. ولو نحن عدنا إلى الأفعال. التي قدمها ويلمي أمثلة لأفعال الديمومة، فإن أحداث كل من الجذور، "ك و ن"، "و ج د"، "ع ل م"، "ع ر ف"، "ح ب ب" هي أحداث، حسب نظره، لا يمكن أن تكون في طور الاستمرارية والتحقق.

II. الزمن:

وأما من حيث "الزمن" والذي هو زمن حدوث الفعل وذلك انطلاقا من لحظة التكلم (L'instance de l'énonciation) ، فإن الفعل "كان" يطرح أيضا مشاكل غير يسيرة.

ولفهم إشكالية الزمن لهذا الفعل، فالأحسن أن ننطلق من فهم النحويين العرب له.

باختصار، تنقسم "كان" بالنسبة للنحويين العرب القدامى إلى ثلاثة أقسام: ناقصة، تامة وزائدة. وفيما يلي، نذكر النوعين الأولين ، وأما الثالث فسيأتي الكلام عنه لاحقا.

النوع الأول : كان الناقصة، مثل: "كان الجو جميلا".

وتسمى بالناقصة لأنها تدل على حدث "ناقص" أو "معنى مجرد ناقص"[13] ذلك أن إسناد "كان" إلى مرفوعها "الجو" لا يفيد الفائدة الأساسية المطلوبة من الجملة الفعلية، بل تبقى جملة "كان الجو" ناقصة، مالم تتبع بإلحاق منصوبها "جميلا" الذي يحقق اكتمال معنى الجملة (أي: كان الجو جميلا).

تعتبر "كان" إذا ناقصة لأنها تخالف الأفعال "التامة" ـ اللازمة منها خاصة ـ التي يكتمل معناها بمرفوعها (الفاعل أو نائبه).

وتسمى كان الناقصة أيضا كان "الناسخة" لأنها تحدث تغييرا على الجملة الاسمية المكونة من مبتدإ وخبر مرفوعين؛ إذ أصل جملة : "كان الجو جميلا" هو "الجو جميل" . لكن بعد دخول "كان" عليها يتزحزح المبتدأ عن صدارة الجملة تاركا إياها للفعل "كان" ، كما أن الخبر لا يبقى مرفوعا بل يصبح منصوبا.

النوع الثاني: كان التامة : وهي التي تكتفي بمرفوعها (الفاعل) دون حاجة إلى منصوبها الخبر، مثل:

"أشرقت الشمس فكان النور وكان الدفء"، وكقول حسان بن ثابت مخاطبا المشركين في مكة حين اعترضوا المسلمين القادمين من المدينة لزيارة الكعبة:

إن تُعرضوا عنا اعتمرنا * وكان الصبح وانكشف الغطاء

وإلا فاصبروا لجلاد يوم * يعز الله فيه من يشاء

ومعنى كان التامة في المثالين أعلاه هو "وجد"، "ظهر"، "وقع"، "حصل"، إلخ.

و"كان" الثانية هذه التي بمعنى "وجد" (أي التامة)، يمكن أن تكون خبرا (جملة فعلية) لكان الأولى (أي الناقصة). وللتدليل على ذلك نأخذ المثال الذي يقدمه المستشرقان بلاشير (BLACHERE) وجودفروي ـ ديمومبين (GAUDEFROY-DEMOMBYNES) في مؤلفهما "Grammaire de l'Arabe Classique" (نحو العربية

13) حسب تعبير عباس حسن في مؤلفه : النحو الوافي، جزء1، ص 545، هامش (3).

الكلاسيكية):

"كان أبيّ يكون عند كسرى"[14].

غير أن المؤلفين يلاحظان أن مثل هذا الاستعمال في اللغة العربية قد هُجِر[15].

والحقيقة، إن هذا الاستعمال ليس مهجورا في اللغة العربية كما يظن هذان المستشرقان؛ يقول الشاعر القطامي في العصر الأموي:

ينضي الهجان التي كانت تكون بها * عرضية وهباب حين ترتحل[16]

ويقول الجاحظ في العصر العباسي:

"فكان يكون بينه وبين أول الطبقات عشرون ذراعا".[17] ويقول طه حسين، في العصر الحديث، في تقديمه لكتاب "إحياء النحو" لإبراهيم مصطفى:

"وكان النحو أشد موضوعات الحديث فيما كان يكون بيننا من حوار"[18].

ولكي نعود إلى زمن "كان"، فإن صاحب النحو الوافي، مثلا، يقول:

"كان : نفهم معناها من مثل: كان الطفل جاريا؛ فهذه الجملة يراد منها إفادة السامع أن الطفل منسوب له شيء؛ هو "الجري"، وأن الجري تحقق في زمن ماض، بدليل الفعل كان ولو قلنا: "يكون الطفل جاريا" لكان المراد إفادة السامع أن الطفل منسوب له شيء؛ هو "الجري"، وأن الجري تحقق في زمن حال أو مستقبل؛ بدليل الفعل المضارع "يكون"[19].

ويضيف المؤلف نفسه:

---

14) Régis BLACHERE , M. GAUDEFROY - DEMOMBYNES, Grammaire de l'Arabe Classique, 3ème édition, Maison neuve , Larose, Paris 1978, p. 271 .

15) "Cet emploi ne s'est pas maintenu" (ibid).

16) زودني بهذا البيت مشكورا الأستاذ بلقاسم ليبارير الذي أعد أطروحة دكتوراه الدولة حول الشاعر نفسه.

17) التاج في أخلاق الملوك، تح زكي باشا، المطبعة الأميرية، القاهرة 1914، ص28 .

18) طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1937 .

19) النحو الوافي، عباس حسن، جزء1 ، ص 548 .

" مما سبق نفهم المراد من قول النحاة: "كان" مع معموليها تفيد اتصاف اسمها بمعنى خبرها اتصافا مجردا في زمن يناسب صيغتها (...) فإن كانت الصيغة فعلا مضارعا خالصا فالزمن صالح للحال والاستقبال، بشرط ألا يوجد ما يجعله لأحدهما أو لغيرهما"[20].

ثم يستدرك ملفتا الانتباه إلى أن "كان" :

" قد تستعمل - بقرينة - بمعنى: بقي على حاله، واستمر شأنه، وسيستمر من غير انقطاع ولا تقيد بزمن معين نحو: كان الله غفورا رحيما"[21].

فالقرينة هنا هي لفظ الجلالة "الله"؛ إذ لا يمكن أن يكون زمن "كان" في مثل هذه الآية الكريمة هو الزمن الماضي ذلك أنه لا يعقل أبدا أن يكون الله غفورا رحيما في الزمن الماضي فقط. وإننا لنجد كل اللغويين العرب يقولون بعدم الدلالة الزمنية الماضية لكان في مثل هذه الآية، بل بديمومتها واستمراريتها : ماضيا، وحاضرا ومستقبلا. وحتى المستشرقون فإنهم بدورهم يقرون هذه الحقيقة المطلقة؛ يقول، على سبيل المثال، الأب اليسوعي هنري فلايش (Henri FLEISH) موضحا "كان" في الآية "كان الله عليما حكيما" مايلي:

" كان (être) هي الحدث بأتم معنى الكلمة (excellence L'action par) : إنه كذلك [أي كون الله عليما حكيما] في حاضر أبدي (éternel présent). كان، بصيغة الماضي، هي الكيفية التي تعبر عن هذا الوجود الديناميكي الذي لا بداية له ولا نهاية ولا تغير، والذي هو باستمرار حاضر. إن الصفات (adjectifs) المنصوبة التي تتبع كان هي أحوال وليست أخبارا، كما سبق أن شرح ذلك نحاة الكوفة (...) فصفات الحال في [مثل هذه]

---

20) المرجع السابق 1/548.

21) المرجع السابق، 1/549.

الآيات القرآنية، لا تدل إلا على أنماط (modalités) هذا الحضور الإلهي لدى الإنسان" [22].

ومن الصعوبات التي تطرحها "كان" بصيغة الماضي التي تدل، من المفروض، على الزمن الماضي، نجد بيت الطرماح الذي يقول فيه:

وإني لآتيكم تشكر ما مضى * من الأمر واستيجاب ماكان في غد

وذلك باستعمال "كان" ليس للدلالة على الماضي وإنما للدلالة على المستقبل.

غير أن النحويين يعللون هذا الاستعمال بكون اللّبس يزول بوجود قرينة "غد".

فهذا ابن جني مثلا يورد البيت ويعلل استعمال "كان" فيه - بدل "يكون" - برأي أبي بكر مجيبا عن سؤال أبي علي الفارسي:

"كان حكم الأفعال أن تأتي كلها بلفظ واحد؛ لأنها لمعنى واحد؛ غير أنه لما كان الغرض في صناعتها أن تفيد أزمنتها، خولف بين مثلها؛ ليكون ذلك دليلا على المراد فيها (...) فإن أُمِنَ اللبْسُ فيها جاز أن يقع بعضها موقع بعض"[23]

وابن جني الذكي يصنف الفعل "كان" في بيت الطرماح الآنف الذكر ضمن أفعال عبارات الدعاء مثل: "أيدك الله"، "حرسك الله"، الخ، التي تجيء بصيغة الماضي بدل المضارع رغبة في تحقق الدعاء. يقول ابن جني:

"إنما كان ذلك تحقيقا له [أي لفظ الدعاء] وتفؤلاً بوقوعه أن هذا ثابت بإذن الله، وواقع غير ذي شك. وعلى ذلك يقول السامع للدعاء إذا كان مريدا لمعناه: "وقع إن شاء

22) النص الأصلي:

" (...) être est l'action par excellence: Il est, dans un éternel présent. Kana " Il est" , signifié par un accompli, a été la manière d'exprimer cette existence dynamique, sans commencement, ni fin, ni changement, toujours présente: Il est . Les adjectifs qui suivent, à l'accusatif sont des hals (et non des attributs), des hals selon l'explication à donner à ces adjectifs à l'accusatif après kana, explication déjà donnée par les grammairiens de Kufa (...). Les adjectifs au hal, dans les expressions coraniques, indiquent simplement les modalités de cette présence-divine à l'homme" (Traité de Philologie Arabe, Henri FLEISH, vol°II, p. 196 , note marg. n°1)

23) الخصائص، 3/331 .

الله"... وكذلك قول الطرماح "واستيجاب ما كان في غد" يكون عذره فيه: أنه جاء بلفظ الواجب، تحقيقا له وثقة بوقوعه، أي إن الجميل منكم واقعٌ متى أريد، وواجبٌ متى طلب"[24].

غير أننا نلاحظ أن "كان" في بيت الطرماح هذا يمكن أن نعدها من قبيل "كان الزائدة"، وهو النوع الثالث الذي أشرنا إليه سابقا ولم نفصّله وسنتطرق إليه فيما يلي.

النوع الثالث: كان الزائدة:

يقول ابن مالك في ألفيته:

وقد تزاد "كان" في حشو كما * كان أصحّ علم من تقدما[25]

وتعرب "كان" في عبارة : " ما كان أصحّ علمَ من تقدم" زائدة؛ إذ معنى العبارة هو: "ما أصح علم من تقدم" ومعنى زيادة "كان" يقول عباس حسن، أمران:

"أولهما: أنها غير عاملة (فلا تحتاج إلى معمول من فاعل، أو مفعول، أو اسم وخبر، أو غيرهما؛ إذ ليس لها عمل)؛ وليست معمولة لغيرها - وهذا شأن كل فعل زائد - ولا يتأثر صوغ الأسلوب بحذفها.

وثانيهما: أن الكلام يستغني عنها، فلا ينقص معناه بحذفها. ولا يخفى المراد منه، وكل فائدتها أنها تمنح المعنى الموجود قوة وتوكيدا؛ فليس من شأنها أن تحدث معنى جديدا، ولا أن تزيد في المعنى الموجود شيئا إلا التقوية والتأكيد"[26].

وإننا إذ نرى أن "كان" في بيت الطرماح زائدة فلأن حذفها لا يؤثر على معنى البيت - باستثناء التأثير طبعا على الوزن:

وإني لآتيكم تشكر ما مضى * من الأمر واستيجاب ما في غد

بدل "واستيجاب ما كان في غد" .

---

24) المرجع السابق، 332/3 .

25) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، 288/1 .

26) النحو الوافي، 580/1 .

و"كان الزائدة" هذه، حسب ما يرويه النحويون، يمكنها أن تتوسط الشيئين المتلازمين؛ فقد تزاد بين:

* ما "التعجبية" وفعلها كما مرّ في شاهد ابن مالك (ما كان أصح علم من تقدم)، أو كقول عروة بن أذينة:

ما كان أحسن فيك العيش مؤتنفا * غضا وأطيب في أصالك الأصلا[27]

* كما يمكن أن تتوسط الموصوف وصفته مثل:

فكيف إذا مررت بدار قوم * وجيران لنا كانوا كرام[28]

* وقد تتوسط الفعل وفاعله، كقول قيس بن غالب في فاطمة بنت الخرشب:

«ولدت فاطمةُ بنت الخرشبِ الأنمارية الكملةَ من بني عبس لم يوجد كان أفضل منهم»[29].

* وقد تزاد بين حرف الجر ومجروره - وهذا نادر - كقول الشاعر:

سراة بني أبي بكر تسامى * على كان المسومة العراب

ويروى البيت نفسه:

جياد بني أبي بكر تسامى * على كان المطهمة الصلاب[30]

* كما تزاد بين المعطوف والمعطوف عليه، مثل:

«الصديق مخلص في الشدة كان والرخاء»[31].

* وتتوسط الموصول وصلته، مثل:

«أقبل الذي كان عرفته»[32].

---

27) شرح ابن عقيل، 289/1 ، هامش (2).

28) المرجع نفسه، 289/1 .

29) المرجع نفسه، 289/1 .

30) المرجع نفسه، 291/1 .

31) النحو الوافي، 579/1 .

32) المرجع نفسه.

* وتزاد أيضا بين المبتدإ وخبره، مثل:

"زيد كان قائم [بتنوين الضم] "[33].

فمعنى زيادة "كان" إذا شيئان:

- عدم عملها،

- استغناء الكلام عنها.

كما أن النحويين قد اشترطوا للحكم بزيادتها شرطين اثنين:

- أن تتوسط الشيئين المتلازمين، كما مرت الأمثلة على ذلك،

- أن تكون بصيغة الماضي.

في الحقيقة، إن المتأمل في الخصائص التي توصل إليها النحويون العرب القدامى بخصوص "كان الزائدة" هذه، يتساءل بحيرة عن جدوى وظيفة هذا الفعل في اللغة العربية خصوصا وأنه مفرغ من عمله (غير عامل)، ثم إن حذفه أو بقاءه لا يؤثر على معنى الجملة!

والواقع، إن المتفحص للأمثلة التي استشهد بها النحويون للتدليل على زيادة "كان"، يلاحظ تقريبا أن حذف "كان" لا يؤثر على المعنى؛ ولنتأمل بعضا من هذه الأمثلة:

المثال 1 :

⇐ فكيف إذا مررت بدار قوم * وجيران لنا كانوا كرام

فكيف إذا مررت بدار قـــوم * وجيران لنـا كـــرام

المثال 2 :

زيد كان قائم ⇐ زيد قائم.

المثال 3 :

أقبل الذي كان عرفته ⇐ أقبل الذي عرفته،

---

33) شرح ابن عقيل، 288/1 .

ولا بأس أن نعد "كان" في بيت الطرماح من قبيل "كان الزائدة" حتى وإن اعتبرها ابن جني، كما سبقت الإشارة إلى ذلك آنفا، من قبيل أفعال الدعاء التي يُعبَّرُ عنها بالماضي بدل المضارع:

المثال 4 :

وإني لآتيكم تشكر مامضى * من الأمر واستيجاب ما كان في غد

⇐ وإني لآتيكم تشكر ما مضى * من الأمر واستيجاب ما في غد

لكن الشيء الذي يمكن ملاحظته أيضا هو أن "كان" في الأمثلة أعلاه، يمكن أن تستبدل بالضمير العائد عليها من حيث الجنس والعدد من دون أن يتغير المعنى:

1 - فكيف إذا مررت بدار قوم * وجيران لنا كانوا كرام

⇐ فكيف إذا مررت بدار قوم * وجيران لنا هم كرام

2 - زيد كان قائم ⇐ زيد هو قائم

3 - وإني لآتيكم تشكر ما مضى * من الأمر واستيجاب ما كان في غد

⇐ وإني لآتيكم تشكر ما مضى * من الأمر واستيجاب ماهو في غد

وللتذكير، فإن النحاة يشترطون في زيادة "كان"، علاوة على عدم العمل، أن تكون بصيغة الماضي. لكنهم وجدوها قد شذت فجاءت بصيغة المضارع في بيت أم عقيل ابن أبي طالب، الذي تقول فيه:

المثال 5 : أنت تكون ماجدٌ نبيلُ * إذا تهب شمألٌ بليلُ [34]

---

34) الشاهد رقم 71 من ألفية ابن مالك. "هذا البيت - كما قال الشارح - لأم عقيل بن أبي طالب، وهي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، وهي زوج أبي طالب بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم وأبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، تقوله وهي ترقص ابنها عقيلا، ويروى بيت الشاهد مع ما قبله هكذا:

إن عقيلا كاسمه عقيل * وبيبي الملفف المحمول

أنت تكون السيد النبيل * إذا تهب شمأل بليل

* يعطى رجال الحي أو ينيل * (شرح ابن عقيل 292/1) .

فحسب النحويين القدامى، يمكن حذف "تكون" من بيت أم عقيل دون أن يتأثر المعنى:

⇐ أنت ماجد نبيل * إذا تهب شمأل بليل

وعلى غرار ما فعلنا في الأمثلة أعلاه، يمكن أن نستبدل "تكون" بالضمير العائد عليها، فيصبح البيت:

⇐ أنت أنت ماجد نبيل * إذا تهب شمأل بليل

غير أننا حين نقارن البيتين المتصرف فيهما بحذف "تكون" من جهة، وباستبدالها بالضمير "أنت"، من جهة أخرى، سوف نجد الفرق واضحا هذه المرة. ذلك أن حذف "تكون": "أنت ماجد نبيل ..." هو أقل توكيدا - وبكثير - من استبدالها بالضمير: "أنت أنت ماجد نبيل...".

لهذا، فكان التي يعدها النحويون "زائدة"، هي، حسب تحليلنا هذا، "توكيدية". وإننا لنرى، بالتالي، أن حذفها يعني حذف التوكيد، وبقاءها يعني وجود التوكيد في المعنى.

ربما يعترض معترض فيقول إن التوكيد الذي نتكلم عنه هو توكيد آت من الشاهد الأخير، بيت أم عقيل، حيث يتكرر الضمير "أنت" مرتين، وليس من "تكون" الزائدة!

وللرد على هذا الاعتراض، نقول إننا إذ نعطي صفة التوكيد لهذا الفعل الذي اعتبره النحاة زائدا فلسببين رئيسيين.

السبب الأول هو أن النحاة أنفسهم قد أقروا هذا التوكيد، لكنهم حين اشترطوا لزيادة "كان" شرطين: "عدم العمل" و "استغناء الكلام عنها" قد وجدوا أنفسهم محرجين إلى حدما، فيما يتعلق بالشرط الثاني؛ ولنتأمل، بهذا الصدد، ما يقوله مثلا عباس حسن:

" وثانيهما [أي الشرط الثاني بعد عدم العمل]: أن الكلام يستغني عنها [أي عن "كان"] ، فلا ينقص معناه بحذفها، ولا يخفى المراد منه، وكل فائدتها أنها تمنح المعنى الموجود قوة وتوكيدا؛ فليس من شأنها أن تُحدث معنى جديدا، ولا أن تزيد في المعنى

الموجود شيئا إلا التقوية والتأكيد"[35].

فالنص كما نلاحظ، مضطرب إن لم نقل متناقض: فهل يعقل يا ترى أن نقول أن ليس من شأن "كان" أن تحدث معنى جديدا، ولا أن تزيد في المعنى الموجود شيئا إلا التقوية والتأكيد؟ !

أليس "التقوية" و "التأكيد" في حد ذاتهما معنى جديدا؟!

فحذف "كان" إذا معناه، كما أسلفنا، هو حذف التوكيد، ووجودها يعني وجود التوكيد. وهذا الأخير هو، في اعتقادنا، معنى جديد؛ إذ لا يمكن أن نسوي، من حيث المعنى، بين عبارتين إحداهما مؤكدة والأخرى غير مؤكدة.

وفي الحقيقة، إن الباحث ليتساءل بحيرة عن وجود "كان" هاته في نظام اللغة العربية دون وظيفة تؤديها!

بتعبير آخر، إن "كان" التي نعتها النحويون بالزائدة قد لا تعدو أن تكون، في أصل استعمالها، "توكيدية" إذ لو كانت زائدة فعلا لما كانت اللغة العربية في حاجة إليها، بل لاستغنت عنها تماما.

وأما السبب الثاني الرئيسي لصفة التأكيد الذي نقول به، فهو أن التأكيد لا يقتصر، في الواقع، على "كان" التي يسميها نحويونا "الزائدة"، بل يتعداها أيضا إلى "كان الناقصة العاملة" . وهذا مالم يتنبه إليه النحويون حسب اطلاعي.

وللتذكير، فإن "كان الناقصة" - والتي تسمى أيضا "الناسخة" - في المصطلح العربي، تفيد اتصاف اسمها بخبرها في زمن يناسب صيغتها: إن كانت بصيغة الماضي(أي كان) دلت على الزمن الماضي، وإن كانت بصيغة المضارع(أي يكون) دلت على الحال أو الاستقبال. غير أن النحويين العرب، وحتى المستشرقين، قد فسروا دلالتها الزمنية في مثل الآية الكريمة "وكان الله عليما حكيما" بكونها دلالة تشمل الأزمنة الثلاثة : الماضي، الحاضر والمستقبل، بحجة وجود القرينة التي هي "الله" عز وجل؛ إذ لا يعقل أن يكون

35) النحو الوافي، 580/1 .

الله عليما حكيما في الماضي فقط، بل كان ولا يزال وسيبقى كذلك في كل الأزمنة.

والواقع أن "كان" في هذه الآية وفي كثير من الآيات القرآنية الكريمة المماثلة لها، ليس الغرض منها الدلالة الزمنية، وإنما الدلالة التوكيدية. ويستحسن، لفهم هذا النوع من الدلالة التوكيدية لا الزمنية، أن نأتي بأمثلة قرآنية ليس اسم "كان" فيها هو لفظ الجلالة "الله".

ولعل خير ما يوضح الفرق بين "كان الناقصة" ذات الدلالة الزمنية و "كان الناقصة" ذات الدلالة التوكيدية هو سياق مريم عليها السلام حين أتت قومها تحمل مولودها، فاتهموها بارتكاب الفاحشة:

«فأتت به قومها تحمله، قالوا: "يا مريم لقد جئت شيئا فريا، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا!" فأشارت إليه، قالوا: "كيف نكلم من كان في المهد صبيا؟!» (مريم، الآيات 27،28،29) .

وكما نلاحظ، فإن السياق يبين بأن "كان" الأولى (ما كان أبوك امرأ سوء) و "كان" الثانية (ما كانت أمك بغيا) تدلان على الزمن الماضي، بينما دلالة "كان" الأخيرة (كيف نكلم من كان في المهد صبيا) ليس الغرض منها الدلالة الزمنية بل الدلالة التوكيدية؛ ذلك أن مريم عليها السلام، لكي ترد التهمة عن نفسها، طلبت من متهميها أن يكلموا صبيها الموجود في المهد. فتعجب هؤلاء وقالوا لها: "عجبا! هل يعقل أن نكلم صبيا في المهد؟!".

فوظيفة "كان" هنا إذا هي التأكيد على الخبر (أي خبر "كان") الذي هو الصبي في المهد، وليست أبدا الوظيفة الزمنية. إذ السياق، رغم مجيء "كان" بصيغة الماضي، إلا أنه سياق الزمن الحالي (أي الحاضر).

و "كان" هنا، يمكن جدا أن تستبدل بالضمير العائد عليها:

المثال 6 :

"كيف نكلم من كان في المهد صبيا"؟! ⇐ كيف نكلم من هو في المهد صبي؟!

والتوكيد هذا هو ما نجده أيضا في الآيات:

المثال 7 :

قل: "سبحان ربي هل كنتُ إلا بشرا رسولا" (الإسراء الآية39) ⇐ قل : " سبحان ربي هل أنا إلا بشر رسول"،

المثال 8 :

"إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما" (النساء الآية107) ⇐ إن الله لا يحب من هو خوان أثيم.

المثال 9 :

"وتفقد الطير فقال : "مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين؟!" (النمل الآية20) ⇐ وتفقد الطير فقال: "مالي لا أرى الهدهد أم هو من الغائبين؟!".

وبطبيعة الحال، فإن تساؤل سليمان عليه السلام عن غياب الهدهد، بالنسبة للمثال التاسع ليس هو غيابه في الزمن الماضي، بل في زمن "لحظة إرسال الخطاب" (l'instance de l'énonciation) الذي هو الزمن الحاضر، وبالتالي فدلالة "كان" ليست قطعا الدلالة الزمنية بل الدلالة التوكيدية.

المثال 10 :

"كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله" (آل عمران الآية 110).

يخبرنا ابن منظور، بخصوص هذه الآية، أنه قد روي عن ابن الأعرابي أن قوله عز وجل "كنتم خير أمة أخرجت للناس" معناه "أنتم خير أمة أخرجت للناس" [36]. ومن دون شك، فالدلالة الزمنية الماضية للفعل "كنتم" في هذه الآية، مستبعدة جدا؛ إذ لو كان مخاطبو القرآن الكريم خير أمة في الزمن الماضي، لما أرسل الله عز وجل فيهم رسالة الإسلام. وأعني بمخاطبي القرآن الكريم معاصري النبي محمد صلى الله عليه وسلم لحظة نزول الآية (prophétie l'instance de la) . وأما بالنسبة لنا نحن في الزمن الحالي،

36) لسان العرب 366/13 .

باعتبارنا خلف أولئك الذين نزلت فيهم الآية في الزمن الماضي، فالدلالة الزمنية الماضية للفعل "كنتم" واردة بطبيعة الحال ويجب ألا يفهم من الوصف "واردة" بأنها دلالة زمنية ماضية منتهية، بل هي باقية في عصرنا الحالي ومستمرة مستقبلا.

ولا يفوتنا أن ننبه ههنا إلى أن الدلالة التوكيدية لـ "كان" الناقصة، في بعض الآيات التي ليس اسمها فيها هو لفظ الجلالة "الله"، قد نجدها متضمنة للدلالة الزمنية الماضية؛ من ذلك قوله عز وجل:

المثال 11 :

"ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة" (الإسراء، الآية23).

المثال 12 :

"وآت ذا القربى حقه وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا" (الإسراء 26 و 27).

المثال 13 :

"قل: "جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا" (الإسراء 81).

إن "كان" في هذه الآيات هي، حسب اعتقادنا، للتأكيد بالدرجة الأولى أكثر منها للتعبير الزمني الماضي، ولعل الأصح، هي من حيث الزمن "مطلقة" بمعنى أنها متضمنة لكل الأزمنة فهي تشبه، إلى حد كبير، ما يسميه النحويون بـ"كان الإلهية" في مثل قوله تعالى " وكان الله عليما حيكما"؛ ذلك أن الزنى (المثال11) كان ولا يزال وسيبقى فاحشة، وأن المبذرين (المثال12) كانوا ولا يزالون وسيبقون إخوان الشياطين، وأن الشيطان (المثال 12) كان ولايزال وسيبقى لربه كفورا، وأن الباطل (المثال13) كان ولا يزال وسيبقى زهوقا.

نستخلص من كل هذا أن "كان الناقصة" عندما تكون ذات دلالة زمنية مطلقة، ليس هي بالضرورة "كان الإلهية" (أي "كان" التي اسمها لفظ الجلالة "الله"). فلقد رأينا في الأمثلة الأخيرة أعلاه (11، 12، 13) أن "كان" التي اسمها على التوالي: الضمير المقدر

"هو" العائد على "الزنى"، "واو الجماعة العائد على "المبذرين" ، الضمير المقدر "هو" العائد على "الشيطان" ، وأخيرا "الباطل" ، قد دلت على زمن مطلق.

لكن، إنه لمن الممكن جدا أن نحتج بقولنا إن "كان" في الآيات الأخيرة (الأمثلة: 11، 12 و 13) ليست مقتصرة على الزمن الماضي لكونها جاءت بصيغة الماضي، وإنما هي ذات دلالة زمنية مطلقة بوجود قرينة، تتمثل هذه القرينة في أنها قد وردت في "كلام الله" وأن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، صالح لكل الأزمنة.

وللرد على هذا الاحتجاج، نقول إن غرضنا ليس هو تفنيد مقولة إن "كان الناقصة" عندما تكون ذات دلالة زمنية مطلقة هي "كان الإلهية" فقط ، بقدر ما هو إثبات أن وظيفة "كان الناقصة" ، وبالأخص الإلهية منها، هي وظيفة توكيدية لا زمنية[37].

والحقيقة، إن "كان التوكيدية" التي يمكن أن تستبدل بالضمير العائد عليها من حيث الجنس والعدد، يمكن أن تستبدل في بعض الأمثلة التي ذكرنا بحرف التوكيد المشبه بالفعل الذي هو الناسخ "إنّ" . ولنأخذ بالنسبة لـ"كان" الزائدة - بمصطلحنا النحوي - المثالين الثاني والخامس:

- زيد كان قائم ⇐ زيد هو قائم ⇐ زيد إنه قائم.

- أنت تكون ماجد نبيل ⇐ أنت أنت ماجد نبيل ⇐ أنت إنك ماجد نبيل.

ونأخذ بالنسبة لكان الناقصة المثالين التاسع والعاشر:

- مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين؟! ⇐ مالي لا أرى الهدهد أم هو من الغائبين؟! ⇐ مالي لا أرى الهدهد أم إنه من الغائبين؟!

- كنتم خير أمة أخرجت للناس ⇐ أنتم خير أمة أخرجت للناس ⇐ إنكم خير أمة أخرجت للناس.

---

37) غير أنه يجب ألا نفهم من كلامنا هذا أن القصد منه هو نفي مجيء "كان الناقصة" للدلالة على الزمن الماضي، بل فما أكثر الآيات القرآنية التي ترد فيها "كان" للدلالة الزمنية الماضية، وبخاصة إذا كان خبرها جملة فعلية.

كما أن "كان التوكيدية" يمكن أن تستبدل في بعض من أمثلتنا بلام التوكيد (الأمثلة : 11، 12 و 13) :

- لا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة ⇐ لا تقربوا الزنى إنه لفاحشة.

- وآت ذا القربى حقه وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ⇐ (...) إن المبذرين لإخوان الشياطين،

- قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ⇐ (...) إن الباطل لزهوق.

وخلاصة القول، إننا قد لاحظنا أن "كان" التي أطلق عليها النحاة "الزائدة" هي، في واقع الأمر ، غير كذلك في بعض الأمثلة، ذلك أن حذفها يعني حذف التوكيد وبقاءها يعني بقاءه. فهي بالتالي "توكيدية". وصفة التوكيد هذه لا تقتصر، في حقيقة الأمر، على "كان الزائدة غير العاملة"، بل تُقاسمُها فيها "كان الناقصة العاملة" وعلى السواء الإلهيةَ منها و غير الإلهية. إن "كان الناقصة" ، وبالأخص الإلهية منها، ليست ذات وظيفة زمنية بقدر ماهي ذات وظيفة توكيدية.

ولعل خير ما يؤيد مقولتنا بالوظيفة التوكيدية لا الزمنية لـ "كان"، هو أنّ كلاً من حرف التوكيد "إن" و "كان" فيهما ما يسميه "سيبويه "ضمير الأمر والشأن"، وبحيث يمكن أن تنوب الأولى مناب الثانية. يقول شارح سيبويه السيرافي:

«قال سيبويه (...): "وتقول: كان من يأته يعطه" يريد أن "كان" فيها ضمير هو اسمها. ثم قال [أي سيبويه دائما]: "وقد جاء في الشعر : إن من يأتني آته" يريد "إنه" حذف اسم "إن" وقدره "إنه" وهذا الضمير ضمير الأمر والشأن".[38]

وفي الحقيقة، إن التوكيد في القرآن الكريم بالنسبة للتركيب "كان الله عليما حكيما" هو درجات وأنواع مختلفة. إننا قد نجده بـ "كان" وقد نجده بـ "إن" ، مثل قوله عز

38) شرح أبيات سيبويه ، 86/2، وينظر أيضا (المرجع نفسه 144/1)، فيما يخص "كان" الزائدة غير العاملة التي فيها ضمير الأمر والشأن، بيت العجير بن عبد الله السلولي:
إذا مت كان الناس صنفان: شامت * وآخر مثن بالذي كنت أصنع

وجل:

"ومن يكسب إثما، فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما "(النساء 111).

وقوله:

"ومن يقترف حسنة، نزد له فيها حسنا، إن الله غفور شكور" (الشورى23).

فبالنسبة للنوع الأول، يمكن أن نمثل بمقاطع من سورة النساء في قوله:

النوع الأول: كان الله عليما حكيما

- "وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنيا حميدا " (الآية 131).

- "من كان يريد ثواب الدنيا، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعا بصيرا" (الآية 134).

- "ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما. لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما " (الآيتان 147 - 148).

- "والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم، أولئك سوف نؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما" (الآية152).

- فالملاحظ أن "كان" في هذا النوع الأول، يمكن أن تنوب عنها "إن" التي نجدها في النوع الثاني كقوله عز وجل:

النوع الثاني: إن / [كان] اللهَ [اللهُ] عليمٌ [عليما] حكيمٌ [حكيما].

- "ولله المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثم وجه الله، إن الله واسع عليم"(البقرة 115)

- "فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح، فإن الله يتوب عليه، إن الله غفور رحيم " (المائدة 39).

- "وما النصر إلا من عند الله، إن الله عزيز حكيم " (الأنفال10).

- "وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير " (لقمان 34).

كما أننا قد نجد التوكيد بـ " إن" و "كان" مجتمعتين في مثل قوله تعالى :

النوع الثالث: إن الله كان عليما حكيما.

- "آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله، إن الله كان عليما حكيما " (النساء 11).

- "إن الله نعما يعظكم به، إن الله كان سميعا بصيرا " (النساء58).

- "وما تشاؤون إلا أن يشاء الله، إن الله كان عليما حكيما" (الإنسان30)،

- "ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم، إن الله كان غفورا رحيما"(الأحزاب24).

والحقيقة، إن "كان" في هذا النوع الثالث من التوكيد يمكن أن تكون، من جهة، بديلا لـ "لام التوكيد" الذي نجده في النوع الرابع من مثل قوله:

النوع الرابع: إن الله لـ / [كان]عليمٌ [عليماً] حكيمٌ [حكيماً].

- "إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا، فإن الله لغني حميد " (إبراهيم8)،

- "ولنيصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز" (الحج40)،

- "وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، إن الله لغفور رحيم " (النحل18)،

- "ويحي من حيي على بينة، وإن الله لسميع عليم "(الأنفال 42).

ويمكن، من جهة أخرى، أن تكون "كان"التي نجدها في النوع الثالث (أي التوكيد

من نوع "إن الله كان عليما حكيما") ، يمكن أن تكون بديلا للضمير[39] وهو النوع الخامس الذي نجده في قوله :

النوع الخامس: إن الله هو / [كان] العليمُ [عليما] الحكيمُ [حكيما]

- "لله ما في السموات وما في الأرض، إن الله هو الغني الحميد " (لقمان 26).
- "ثم تاب عليهم ليتوبوا، إن الله هو التواب الرحيم "(التوبة 118)،
- "والله يقضي بالحق والذين تدعون من دونه لا يقضون بشيء، إن الله هو السميع البصير" (غافر 20)،
- "من يتول فإن الله هو الغني الحميد " (الحديد24).

وهناك نوع سادس من التوكيد يجمع بين "إن" و "لام التوكيد" و "الضمير" - وهذا التوكيد، مقارنة مع بقية أنواع التوكيد الأخرى، محدود جدا في القرآن الكريم - وهو ما

---

39) وهذا الضمير هو ما يسمى "ضمير الفصل" عند البصريين و "ضمير العماد" عند الكوفيين، وهو عند مهدي المخزومي "ضمير الإسناد". يقول هذا الأخير: " وإن أخذت العربية تستغني عن استخدام فعل الكينونة للدلالة على تحقق الإسناد استعاضت عنه باستعمال الضمير "هو" الذي يسميه البصريون "فصلا" ، ويسميه الكوفيون "عمادا"، وذلك في الجمل الاسمية غالبا، وفي الجمل الاسمية التي يكون المسند إليه والمسند فيها غالبا معرفة، كقولهم "محمد الشاعر" و "خالد الفقيه" . وهاتان الجملتان تامتان، مستوفيتان كل المتطلبات التي يقتضيها الإسناد. ولكن الأمر فيهما قد يكتنفه اللبس فيظن أن "الشاعر" و "الفقيه" نعتان لا مسندان، فإذا جيء بهذا الضمير زال اللبس، وكان الكلام نصا في الإسناد، وقد جاء الاستعمالان في القرآن الكريم في قوله تعالى :" يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد" ، وفي قوله تعالى: "ومن يبخل فإنما يبخل على نفسه، والله الغني وأنتم الفقراء" (في النحو العربي : نقد وتوجيه، ص - ص 32 - 33). والواقع أن اللبس الذي يمكن أن يحدث فيما يخص عدم التمييز بين المسند والنعت فإننا نجده في الجمل الاسمية غير المنسوخة فقط حيث يكون المسند إليه والمسند مرفوعين. أما فيما يتعلق بالجمل الاسمية المنسوخة سواء بـ " إن" وأخواتها أو بـ "كان" وأخواتها فأمر اللبس غير مطروح باعتبار أنه إذا كان أحد ركني الجملة الاسمية المنسوخة مرفوعا فالآخر يكون منصوبا.

نجده في قوله تعالى:

النوع السادس: إن الله لـ/[كان] هو العليم الحكيم

- "وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم" (آل عمران62).
- "والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أوماتوا، ليرزقنهم الله رزقا حسنا وإن الله لهو خير الرازقين" (الحج58)،
- "له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد" (الحج64).

والجدير بالملاحظة أن "لام التوكيد" في هذا النوع السادس، يمكن أن تكون بديلا لـ"كان" - وقد مر بنا ذلك في النوع الرابع - بحيث نحصل على التركيب "إن الله كان هو العليم الحكيم". وهذا التركيب عربي سليم غير أنني لم أعثر عليه في القرآن الكريم.

وأما استبدال الضمير في هذا النوع السادس بـ "كان" - ولقد مرينا إمكانية استبدال الضمير بـ " كان" في النوع الخامس - بحيث نحصل على التركيب "* إن الله لكان عليما حكيما" فهو أمر غير ممكن ذلك أن مثل هذا التركيب لا يجيزه نظام اللغة العربية.

ولا يسعنا، في نهاية المطاف، إلا أن نشير إلى أن ما تعرضنا له من أنواع التوكيد إنما كان على سبيل حصر ما له علاقة بالوظيفة التوكيدية لـ "كان" في التركيب الذي تناوله مقالنا بالتحليل ليس إلا؛ذلك أننا لا نستبعد قط أن تكون ثمة أوجه أخرى للتوكيد في تراكيب الجملة الاسمية المنسوخة منها وغير المنسوخة لنظام اللغة العربية.

المصادر والمراجع العربية:

ـ القرآن الكريم:

1ـ الأنباري (كمال الدين أبو البركات)، لمع الأدلة في أصول النحو، تح عطية عامر، سطوكهولم 1963.

2ـ الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، التاج في أخلاق الملوك، تح زكي باشا، المطبعة الأميرية، القاهرة 1914.

3ـ ابن جني (أبو الفتح عثمان)، الخصائص ، الجزء3، تح محمد علي النجار، دار الكتاب العربي (د.ت.).

4ـ السيرافي (أبو محمد يوسف بن أبي سعيد)، شرح أبيات سيبويه، تح محمد علي سلطاني، دار المأمون للتراث، بيروت 1979.

5ـ ابن عقيل (بهاء الدين عبد الله)، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، الجزء1، الطبعة 16، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 1974.

6ـ المخزومي (مهدي)، في النحو العربي: نقد وتوجيه، الطبعة الثانية، دار الرائد العربي، بيروت 1986.

7ـ مصطفى (إبراهيم)، إحياء النحو، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1973.

8ـ ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين بن مكرم) لسان العرب، دار صادر بيروت (د.ت).

المراجع الأجنبية :

1- AYOUB (Abderrahmane), L'Auxiliation dans le Coran (l'Expression Temporelle), Thèse dactylographiée de 3e cycle, Sorbonne Nouvelle Paris III, Paris 1977.

2 - BLACHERE (Régis) & GAUDEFROY- DEMONBYNES(M.), Grammaire de l'Arabe Classique, 3e éd., Maisonneuve & Larose, Paris 1978.

3 - CHOUEMI (Moustapha), Le Verbe dans le Coran (Racines et Formes), Klincksieck, Paris 1966.

4 - FLEISH (Henri), Traité de Philologie Arabe (Pronons, Morphologie Verbales, Particules) Vol. II. Dar el -Machreq, Beyrouth 1979.

5 - HEBAZ (Boujemaâ), Notes sur les notions de temps et d'aspect, in Traces, Linguistiques Sémiotiques, Rabat 3/1980.

6 - MESSAOUDI (Leila) Temps et Aspect: Approche de la Phrase Simpe en Arabe Écrit, thèse dactylographiée de 3e cycle, Sorbonne Paris IV, Paris 1981

7 - TROUPEAU (Gérard), Lexique-Index du Kitab de Sibawayhi, Klincksieck, Paris 1976 .

8 - WILMET (Marc), Aspect grammatical, aspect sémantique aspect lexical: un problème de limites, in la Notion d'Aspect, Klincksieck, Paris 1980 .